خُلق القرآن وصراع الحياة

أيها القارئ الكريم:

في عالمنا اليوم صراعٌ يهدِّد الإنسانيةَ كلَّها بخطرٍ داهمٍ وشرٍّ مستطير.

صراعٌ ذو تأثيرٍ بالغٍ في حياةِ الناس وشئونِهم.

لم تَعد أيُّ منطقة بمعزل عن تأثير هذا الصراع؛ لأن الإنسانية جميعها غَدت وكأنها تعيش في بيت واحد، يتأثر كلٌّ بما يقع، وإنْ تَفاوتت درجاتُ التأثر بتفاوت شأن القضايا في تأثيرها أو تأثر الناس بها.

ونحن المسلمين قد شاء الله لنا – منذ شرَّفنا وأنعم علينا برسالة محمد ﷺ – أن نهتَمَّ بشئون الإنسانية بدافع من ديننا وطاعةِ ربِّنا، وأن يكون أمْرنا دائماً ذا شأنٍ وخطر، في ضعفِنا وقوتنا، وهزيمتنا ونصرِنا. ومرجعُ ذلك دائماً إلى ديننا وعقيدتنا. إليه يرجعُ سرُّ قوتنا ونحن أقوياء. بل وسرُّ ضعفنا ونحن ضعفاء، فقد شاء الله أن يرتبط أمْرنا كلُّه بهذا الدين.

نقوى وننتصر بمقدار قربنا منه وأخذنا به، ونضعفُ ونذلُّ بمقدار تنكرنا له وبعدنا عنه، إنه دينٌ يملك شهادةَ صِدْقِه، هُزِمنا نحن أو انتصرنا.

وشهادةُ الصدق في حالة ضعفنا أنه يبرهن لكل ذي سمعٍ وبصر على نزاهتِه وعدله، وأنه يُعطي عطاءَه بقدر العمل دون نظر لدعاوَى الناس أو أمانيِّهم.

﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا

يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ ﴾ [1]

فالذين يحاولون أن ينالوا من الإسلام مُتَّخذين من تخلف المسلمين حجَّة عليه يخطئون أشدَّ الخطأ؛ لأن تخلفَ المسلمينَ - وهم يبتعدون عن الإسلام - شهادةٌ له لا عليه، شهادةٌ على صدقه ونزاهته وأنه الحقُّ، فهم لا يَضِلُّون ولا يَضْعُفون إلا عندما يَضْعُف تمسُّكهم به، أو عندما يلتمسون العزَّ في غيره.

نعم إنَّ أمرنا ذو شأن وخطر، ونحن ننتسب لهذا الدين ذي المبادئ البيِّنة التي تتلى على الناس، المحفوظةِ في كتاب ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾ [2]

ولقد أعمى الحقدُ الموروث فئاتٍ من الناس فلم يبصروا حقيقة الإسلام، ولم يتدبروا كتابه. فصدوا عنه وهو الرحمة والشِّفاء.

والإنسانية في صراعها الأليم في حاجة إلى التراحم. وفي صَرَعِها وسُعَارها وطغيان بعضها على بعض في حاجة إلى الشفاء.

ونحن المسلمين - واهتمام العالم بنا يشتد بدافع من الضرورة والحاجة - وقضايا اليوم هي أهمُّ القضايا شأناً وأبعدُها أثراً، فعلينا أن نخاطب العالم برسالتنا وأن ندلَّه على أننا - بديننا - دُعَاةُ خيرِه. وحُمَاةُ سلامِه وأمنه.

إن خيرَ ما نقدِّمه لأنفسنا - وللعالم المكدود من حولنا - أن نَدْعُوَهَ إلى دين الرحمة، وأن نُعلِيَ أمام نظره ميزانَ الحقِّ والعدل؛ لينعمَ بالإسلام والأمن.

---

(١) النساء : ١٢٣-١٢٤.

(٢) فصلت : من الآية ٤٢.

لقد أفلست مذاهبُ البشر قاطبةً أن تُقَدِّم لدائه علاجاً، والعالم كلُّه حائر يلتمس الخروج من حيرته، قَلِقٌ ينشد الأمن في داخل نفسه والأمانَ من حوله. خائف من يومه متوجس من غده.

والمسلمون - وبيدهم أسباب الطمأنينة والأمن عليهم أن يقوموا بواجبهم ولا يفرطوا في الأمانة الملقاةِ على عاتقهم. وليكونوا رحماءَ بأنفسهم وبالإنسانية جميعاً في القيام بما أوجب الله عليهم من نشر دينه وتبليغ رسالته، فقد طال ليل الإنسانية واشتد ظلامُها. وهي في ظلامها تنشد النور. وفي حيرتها تطلب الهُدى، ونور الله أمام أعيننا وآياته تتلى علينا ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾ (١)

إن العالم يحتاج إلى الكلمة العادلة. والكلمةُ العادلةُ لا بُدَّ أن تقوم بها قوةٌ عادلة تحرسُ ميزانَ العدل، وإلاَّ تمرد أصحاب الهوى وسماسرة الباطل ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ (٢)

(١) المائدة : ١٥، ١٦.

(٢) الحديد : ٢٥.

إن الكتاب والميزان يحتاجان إلى قوة مؤمنة خاضعةٍ لقانون الحق والعدل؛ ليقومَ الناس بالقسط ﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾ (١)

والناسُ ممتحنون بما أنزل اللهُ من كتاب وما خَلَقَ من أسباب.

وأسبابُ القوة يملكها المُصْلحُ والمفسد. والسلاح يكون في يد الحارس الأمين يحفـــظ به الأمن ويردَعُ الفساد والظلم، ويكونُ في يد اللص يثير به الرعب والخوف ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ ﴾، ﴿ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ﴾ (٢)

* القوة العادلة:

لا بُدَّ من قوة مؤمنة يتحقق بها أمن الناس، تنصر الله باتباع دينه والتمسك بكتابه ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ (٣)

إن فلاح أمتنا في قيامها برسالتها وأداءٍ واجبها، وهي إن تخلفت عن مكانتها، أو تنكرت لرسالتها اضطرب ميزانُ العدل، وانتهكت حرمات الناس.

ولن تُحَقِّقَ القُوة وحدها الأمن المنشود، ولا بُدَّ من الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط، ولذا جمع الله بين الكتاب والميزان وأسباب القوة في آية واحدة؛ لتُوضع القوةُ لميزان العدل وتُحْكَمَ بقانون الحق، وليتخذ العدلُ من القوة حراسة أمن تنفذ

(١) الحديد : من الآية ٢٥.

(٢) محمد : من الآية ٤.

(٣) آل عمران : ١٠٤